بسم الله الرحمن الرحيم

**المحاضرة التاسعة** **تطبيقات آليات السيميائية**

**تمهيد:**

سنأخذ في هذه المحاضرة مقاربة سيميائية لرواية الكاتب الجزائري المعاصر الطاهر وطار، والموسومة بـ: الولي الطاهر[1] وذلك حسب طبعة الجمل، وسنختار لها من آليات المقاربة نظرية الشفرات التي أصل لها الناقد الفرنسي رولان بارت، والبداية ستكون مع:

**1-العنوان ( الشفرة الإلغازية ):**

أول ما نبدأ بقاربته هو العنوان الذي تمثله صيغة " الولي الطاهر "، وهو عبارة عن شفرة إلغازية . والعنوان ذو تركيبة اسمية تأسس من دالين الأول منهما هو " المبتدأ "/ " الولي" ، في حين الصيغة الثانية تتجلى في رسم " الطاهر "، تلاحق ما قبلها كتابع في كل شيء ويسمى " النعت ". الولي " يحمل إيحاء " المقدَّس "، فهذا الاسم الصريح الدال على المذكر عند الجزائريين خاصة والعرب والمسلمين عامة، يتعلق بخاصية كل من: التبجيل، التعظيم، الولاء، السمع، الطاعة.. إلخ، عضده يتقوى بـ " " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون الذين آمنوا و كانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة " [2]، هم أولياء الله، ممتعون بالأمان من صفاتهم الإيمان والتقوى لا خاتمة لهم سوى الفوز في الدارين وبذلك قد بشروا. و" الولي " أيضا من إيحاءاته " المدنَّس "، ارتكز هذا المعنى في ظاهر الصورة عند الجزائريين وغيرهم على التقديس الذي لا يخرج عن حياض التعظيم، الولاء الأعمى، السعي لنيل رضى الولي وبركاته، الإكبار.. إلخ، وغيرها من السلوكات، إلا أنها في جوهر الصورة مطوّقة بالجهل في آن واحد حيث المزار، الألوان الخضراء فقط، الشموع المنارة، عبق البخور، يضاف إليها الأضرحة والقباب لجدران مربعة الشكل، والنتيجة هي: أن المقدّس مدنّس، وذلك في أكثر صوره انتشارا وإلى وقت متأخر من زمان المجتمعات العربية

والإسلامية. أما إذا وقفنا على مضان " الطاهر " فإننا نواجه حالة من الالتباس بين ماذكر وبين ما لم يذكر، فهل ينسب إليه النعت انطلاقا من طهارة مادية أم معنوية؟ بمعنى نقاوة مظهره / فكره / جسده / عمله، أي واحدة مقصودة بالطهارة / النقاوة أم أنها مخصوصة لكل ما عُدِّدَ؟ نستلهم شرعية هذا الطرح من الدلالة الحرفية للكلمة، فـ " الطُّهْرُ نقيض النجاسة "[3]، ويبقى العنوان يحوي من الإلغاز الكثير ريثما نتطرق إلى الرواية لنقرأ ونؤول العنوان كشفرة إلغازية .

**2-الشفرات الدلالية:**

في الرواية نجد العديد من الشفرات الدلالية والتي تمثلها وحدات أرضً، تلة رملية، زيتونة عالية، فيف كبير، يقابل كل ذلك المشهد " المقام "، كما توجد الشمس، والحمامة، تقترن وحدة الرملية بإيحاء " الأصالة "، مثلما هي مرتبطة بالكتابات السردية عند كل من غسان كنفاني، " عبد الرحمان منيف " في عمليه " مدن الملح " و" أرض السواد"، ابراهيم الكوني مع " نزيف الحجر ". الزيتونة توحي بالخصب والنماء والرفاهية . وأخيرا تتبقى معنا وحدة " المقام "، فاستنادا إلى / الرملية / الزيتونة / يبرز معنى "المقام" فهو يوحي بـ " الأرض "، من خصائصها أنها تتميز بالأصالة، الخصوبة، القوة، تصلح لأن يمارس عليها سحر الحياة حيث الحق والطريق السوي، إذن، معاني الوحدات السابقة وكما قال بارت لا توجد في المعاجم ولا في نحو اللغة.

ومن الشفرات الدلالية ما نجده في الفقرة الأولى من الصفحة الخمسين، حيث يبدأ نص الشفرة بالمبتدأ القاهرة، والغريب في الأمر هو بعد الاسم مباشرة تتموضع علامة الوقف "النقطة" على الرغم من أن الفقرة ما زالت في بدايتها، صانعة بذلك الفوارق كشفرة دلالية على مستوى الفضاء النصي، يقول الشاهد: " القاهرة. القاهرة المعزية."

إن علامة الوقف رسمت دلالات إيحائية تخص قاهرة التوجع، الفجيعة، قاهرة الدماء، الآلام، الأحزان، الدمار.. وغيرها لتختفي منها كل الأمجاد الغابرة من الحارات، العمارات، المساجد، القصور حتى الفيلات، القاهرة وما حوت، متحولة إلى فسطاط كبير فيه " سال الدم. اغتمت الدنيا. تكدر ماء النيل. فدى الله مصر والعرب والمسلمين بذبح عظيم"[4]. إن المركز الذي تحولت صوبه القاهرة يقدم صورة عن " الزَّمَن الرَّهِيب "، والمتسبب فيه هو الولي الطاهر.

أما شخصيات الرواية فهي عبارة عن شفرات دلالية، فالولي بحسب معطياته الأولية تجسيد لمبادئ الدين، تحديدا الدين الإسلامي، أما الجوهر فنصل إليه من خلال الأفعال السلبية التي صدرت عن الولي الطاهر، ليتحول بذلك الفعل إلى مصب للتشوُّه الديني؛ لأن الولي الطاهر اتخذ من الدين الإسلامي قناعا فبات مؤذ / ضار / مؤلم / سلبي.. ، يحيا في جو من التعتيم، الضبابية، وعدم وضوح الرؤية.

**3-الشفرات الحدثية:**

إن المنطلق في الشفرة الحدثيَّة تتحدد بدايته من جهة بلاَّرة، التي تسعى إلى تحقيق نسل كل الناس وإلى اتحاد العرض بالجوهر والإيحاء الناتج عن هذا أن شفرة بلارة هنا توحي بالمصالحة مع كل سلوك دموي مؤذ.

**4-الشفرة الثقافية:**

تمثل الشفرة الثقافية مجموع الوحدات اللغوية المركبة التي أفرزت " التناص "، وهي في الأصل نصوص دينية مستلهمة من القرآن الكريم، ومن أبرزها نذكر شفرة " سبِّح " التي استعان بها الولي الطاهر في تأدية صلاة ركعتين لمَّا أراد الحلول بمقامه الزكي، كما ترد شفرة " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل و لو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا "[5]، إن هذه السورة قد أقيمت على دعائم ثلاث نشدد فيها على الدعامة التي تحرص على " إثبات البعث والجزاء والإنذار بالجزاء في الآخرة والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار

المشركين بسوء حظهم يومئذ وتكون لهم الندامة على تكذيبهم"[6]. وبما أن الولي الطاهر مقرون بالضلالة، فإن استخدام هذه الشفرة المتغيرة إلى جانب شفرة " سبِّح "، يسمح بالانتقال من فكرتي الهداية والضلالة إلى الوقوف على مراتع فكرة أخرى إنها " التأكيد " على النتيجة الحتمية التي ستحصد نتيجة تصديق العقل أو تكذيبه، استسلامه لشرعة الله أومخالفتها، فعوض إعادة قراءة " سبِّح " في الركعة الثانية، يستغنى عن التكرار الصوتي ويستعاض بصوت آخر ولكن المعنى يبقى عينه وكأنه ينصُّ على " الهداية أو الضلالة، طريقان ثالث لهما، فهما مدار هذه الشفرة إلى الناس كافة كي يقع لهم الإنذار فيما بين أيديهم وما خلفهم، وعلى هذا الأساس تكون هذه الشفرة الأنفع لاستكمال الحديث عن فكرة التأكيد على طرحي الضلالة أوالهداية، وبصورة توضيحية أكثر، تتبني كتأكيد على الضلالة التي ستحاصر الولي الطاهر الذي يبصر الظل / آيات الله ، ولا يتعض بشرعة الله عملا وقولا داخل كل قصور الفيف؛ لأنه ما يزال يسلب الحياة من الآخرين، راسما أكبر لوحة تجمع بين الموت / الألم / المعاناة / لدى العجوز والرضيع، الصغير والكبير، المرأة والرجل حتى الحيوان في كل من أفغانستان، مصر، الجزائر، وأصقاع أخرى لم يفصح عنها النسيج السردي.

**خاتمة:**

هذه بعض من شفرات النص الولي الطاهر، وهي كلها قابلة للقراءة والتأويل، حتى نتمكن من الكشف عن مجموع المعاني الإيحائية التي اكتسبتها الشفرات فضلا عن احتفاظها بدلالتها الحرفية.